

المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم

د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى

أستاذ مشارك فى قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية - جامعة الملك سعود

إن موضوع « المحكم والمتشابه » من الموضوعات الهامة فى علوم القرآن ، ومن الموضوعات الشائكة ، التى لم تحظ بكثير من البحث والدراسة المتكاملة ، كما أن الدراسات له لم تتناوله من منطق أن التعدد فى القراءات يقوم مقام التعدد فى الآيات ، بل ربما وجدنا من أخذ بقراءة دون قراءة أو بترجيح قراءة على قراءة فى قوله تعالى ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ (١) .

ولذلك ظهر لدينا اتجاهان فى تأويل المتشابه يستند كل اتجاه على قراءة للآية السابقة ، بأسلوب يوحى بالاختلاف فى ذلك .

وإن هذا البحث محاوله لدراسة موضوع « المحكم والمتشابه » على ضوء القراءتين فى الآية السابقة وهما : قراءة الوقف على لفظ الجلالة « الله » وقراءة الوصل ، وكذا بيان منشأ التشابه ، وأنواعه وإمكانية معرفته ، وتأويل المتشابه ، ومناهج العلماء فى ذلك ، وتأويل المتشابه بين الأمر والنهى ، والحكمة من وجود المتشابه ، وغير ذلك .



(١) سورة آل عمران ٧

المبحث الأول

المحكم والمتشابه لغة

● المحكم لغة :

حكم : أصله بمعنى منع منعاً لإصلاح ، فيقال : « حكمت الدابة » بمعنى منعت (١) .

ولذلك يسمى « لجام الرس » « حكمة » لأنه يمنعها من الاضطراب ، وكذا حكمت السفينة وأحكمتها .

وفيه قول الشاعر جرير :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبها

والحكم بالشئ : هو القضاء بأنه كذا أو ليس بكذا ، ويقال : « حاكم وحكام » لمن يحكم أو يفصل بين الناس لأنه مانع للظالم عن ظلمه .

و « الحكم » هو المتخصص فى الفصل بين المختلفين دون وجوب لتفصيل مبررات حكمه أو مراجعة إليهم لتفصيل ذلك (٢) .

قال تعالى : ﴿ وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ (٣) .

و « الحكمة » هى إصابة الحق بالعلم والعقل ، مما يمنع صاحبها عما لا يليق به .

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ (٤) .

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ، ج ٧ ، ص ١٨٠

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ، ص ١٢٦ - ١٢٧

(٣) سورة النساء ٢٥

(٤) سورة لقمان ١٢

ولذلك يقال : حكيم وحكماء .

والحكم أعم من الحكمة ، فكل حكمة حكم ، وليس كل حكم حكمة ،
فإن الحكم هو القضاء بشئ على شئ كما سبق (١) .

و « المحكم » من أحكم بمعنى أتقن ، فأحكمت الشئ فاستحكم أى صار
متقناً .

والإحكام مصدر بمعنى الإتقان ، ولذا جاء وصف القرآن الكريم كله بأنه
محكم (٢) .

قال تعالى : ﴿ الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
خبير ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ (٤) .

أى أتقنت آياته فى نظمها ومعانيها دون أن يلحقها خلل أو باطل .

قال تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد ﴾ (٦) .

كما أن المحكم فى مقابل المتشابه يكون بمعنى ما لا يلحقه شبهة عند المكلف
فى إدراكه ومعرفته كاللبس والغموض والإشكال فى فهم المراد (٧) .

قال تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري
من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل
وأتوا به متشابها ﴾ (٨) .

أى يشبه بعضه بعضاً لوناً وشكلاً لا طعماً وحقيقة .

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ، ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢) تفسير الإمام القرطبي ، ج ٢ ، ص ١٢٥٣

(٤) سورة يونس ١

(٣) سورة هود ١

(٦) سورة فصلت ٤٢

(٥) سورة النساء ٨٢

(٧) انظر : تفسير فتح القدير للشوكاني ، ج ١ ص ٣١٤

(٨) سورة البقرة ٢٥

وقال تعالى : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ (١) .

أى التبس بعضها ببعض ، للتشابه بينها فيما وصفت فيه .

ولذلك جاء وصف بعض آيات القرآن بالمحكم دون بعض .

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ (٢) .

● المتشابه لغة :

المتشابه بمعنى المتماثل ، والشبه : المثل ، وأشبه الشئ الشئ : ماثله ، يقال : فلان أشبه أباه ، أى ماثله (٣) .

وقد وصف الله تعالى القرآن كله بأنه متشابه .

قال تعالى : ﴿ الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ (٤) .

(متشابهاً مثاني) أى متماثلاً فى الإتقان والإحكام ، وهو (مثاني) أى مكرر يماثل بعضه بعضاً فى المواعظ والوعد والوعيد والأمر والنهى وغيرها دون تعارض أو اضطراب أو خلل فى ألفاظه وتراكيبه ومعانيه ، بل يشهد بعضه لبعض فى ذلك (٥) .

ولذلك أمر النبي ﷺ القراء والحفاظ بتعهد القرآن حتى لا يتفلت منهم ، ومنه القراءة بأية مكان آية ، أو الخروج من آية إلى آية أخرى ، أو من سورة إلى سورة أخرى عند أدنى خطأ أو نسيان .

عن أبى موسى عن النبي ﷺ قال : « تعاهدوا هذا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل من عقالها » (٦) .

(٢) سورة آل عمران ٧

(١) سورة البقرة ٧٠

(٤) سورة الزمر ٢٣

(٣) انظر : أساس البلاغة للزمخشري ، ص ١٣٧

(٦) رواه مسلم ، انظر : شرح النووى ، ج ٦ ،

(٥) المفردات للراغب الأصفهاني ، ص ٢٥٤

ص ٧٨ ، ومسنَد الإمام أحمد ، ج ٤ ، ص ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ٢٩٧

وإن التشابه أو التماثل قد يكون سبباً للعجز عن التمييز بين الأشياء مما يؤدي إلى الالتباس والغموض ، ولذلك سمى هذا الالتباس أو الغموض متشابهاً من باب إطلاق السبب على المسبب (١) .

قال تعالى : ﴿ وأتوا به متشابها ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ (٣) .

فالتشابه في الأصل بمعنى التماثل ، ثم توسع في إطلاقه ليشتمل على كل التباس أو غموض ، وإن لم يكن ناشئاً من جهة المشابهة أو المماثلة بين شيئين أو أمرين .

ولذلك جاء وصف بعض آيات القرآن بالتشابه دون بعض ، وهو ما يلحقه شبهة عند المكلف في إدراكه ومعرفته كالاتباس والغموض والإشكال في فهم المراد (٤) .

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ (٥) .

* * *

(١) انظر : المفردات للراغب الأصفهاني ، ص ٢٥٤

(٢) سورة البقرة ٢٥ (٣) سورة البقرة ٧٠

(٤) انظر : تفسير فتح القدير للشوكاني ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

(٥) سورة آل عمران ٧ .

المبحث الثانى

القراءتان فى آية سورة آل عمران

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهاً فأمّا الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١) .

إن للقراء فى الآية قراءتين متواترتين وهما :

١- القراءة الأولى : قراءة الوقف على لفظ الجلالة « الله » فى قوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ثم يبدأ بـ ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ .
وهى قراءة نافع والكسائى ويعقوب (٢) .

فالواو للاستئناف ، و (الراسخون) مبتدأ و (يقولون) خبر .

٢- القراءة الثانية : قراءة الوصل ، فالواو للعطف و (الراسخون) معطوف على لفظ الجلالة « الله » و (يقولون) حال ، أى يقرأ بالوصل فى قوله تعالى ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ﴾ .
وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو بن العلاء وعبد الله بن عامر وعاصم ، وحمزة وأبى جعفر وخلف (٣) .

فالقراءتان متواترتان ، والتعدد فى القراءات القرآنية يقوم مقام التعدد فى الآيات ، كما جاءت الأدلة وأقوال العلماء التى تدل على دلالة القراءتين .
ولذلك لا يجوز ترجيح قراءة قرآنية على قراءة قرآنية أخرى ، لأن مثل هذا قدح فى التواتر ، ولا تعارض أو تضاد بين القراءات القرآنية ، وإنما هى من باب التنوع والتغاير الذى يخدم هدف القرآن فى هداية الإنسان .

(١) سورة آل عمران ٧

(٢) القطع والاستئناف للإمام النحاس . تحقيق د. عبد الرحمن المطرودى . ج ١ ص ١٢٥

(٣) القطع والاستئناف للإمام النحاس ، ج ١ ، ص ١٢٥

وقد تعددت الروايات والأقوال عن الصحابة والتابعين والعلماء بما يتفق مع دلالة القراءتين ، وأساء بعض الدارسين فى تصنيف تلك الروايات والأقوال كأدلة لترجيح قراءة على قراءة أخرى ، وذلك لعدم مراعاتهم للنقاط التالية (١) :

١- إن القراءتين قد تثبتان للقارئ أو للمفسر فيكون ما يروى عنه تفسيراً لهما معاً برواية أو قول ، أو بروائتين أو قولين ، أو أن يروى عنه تفسيراً لإحدهما دون الأخرى .

٢- أن يثبت للقارئ أو المفسر قراءة منهما دون الأخرى ، أو أن يكون على قراءة منهما اختياراً أو تقليداً .

ولذلك فإن ما يروى عنه سيكون موافقاً لقراءته ، ولكن ذلك ليس نفيّاً للقراءة الأخرى .

٣- إن تعدد مفهوم « المتشابه » عند الصحابة والتابعين والعلماء جعل الروايات والأقوال عنهم مختلفة بما يتفق مع تعدد مفاهيمهم ، وكذا تعدد مفهوم « التأويل » كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

٤- إن العلماء يتفقون فى النتيجة عند تحديد كل مفهوم للمتشابه ، كالقول بأنه : ما استأثر الله تعالى بعلمه ، مثل الرسم الذهني لصفات الله تعالى أو لصفات النار أو الجنة أو الملائكة ، وغير ذلك من الأمور الغيبية .

فإن العلماء يتفقون على أن ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى دون غيره .

وكذلك إذا قيل إن المتشابه : هو ما احتاج إلى بيان برده إلى غيره ، كالعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، فإنهم يتفقون على أن ذلك مما يعلمه الراسخون فى العلم .

وهذا الاتفاق لا يؤثر فيه الاختلاف فى تحديد مواضع المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم ، وهى قليلة جداً كالأحرف المقطعة فى أوائل السور .

(١) القراءات القرآنية للمؤلف ، ص ٢٣ - ٤٠

٥- إن بعض الروايات والأقوال لمفهوم المحكم والمتشابه من باب ضرب المثل ، حيث إن القرآن ليس منحصرأ فيها .
ولذلك فإن كثيراً منها يمكن إجمالها تحت مفهوم عام - كما سيأتى إن شاء الله - ومثال ذلك (١) :

١- المحكم : هو ناسخه ، وحرامه ، وحلاله ، وفرائضه ، وما تؤمن به ونعمل به .

والمتشابه : هو منسوخه ، وأمثاله ، وأقسامه ، وما تؤمن به ولا نعمل به .

٢- المحكم : هو الناسخ .

والمتشابه : هو المنسوخ .

٣- المحكم : هو الواضح المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال .

والمتشابه : نقيضه .

* * *

المبحث الثالث

سبب النزول لآية سورة آل عمران

إن أسباب النزول باب مهم فى فهم الآيات القرآنية ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما أن أسباب النزول قد تكون متعددة والحكم واحد بالنسبة إليها جميعاً ، أو لحكمين مختلفين دون تضاد أو تعارض فتكون الآية على قراءتين ، فهما من قبيل التنوع والتغاير الذى يتناسب مع الحكمين .

روى أن أوائل سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية أنزلت فى وفد نصارى نجران الذين قدموا إلى المدينة قبل وقعة بدر ، وأقاموا بها أياماً يناظرون النبى ﷺ فى أمر عيسى عليه السلام ودينهم الذى يدينون به إلى أن انتهت إلى طلب الملاعنة ، ثم أعرضوا عنها واستجابوا لفرض الجزية عليهم .

عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه فى مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الخبرات جبب وأردية ، فى (جمال وجلال) بلحارث بن كعب ، قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ : ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ! ، وقد حانت صلاتهم فقاموا يصلون فى مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم ! فصلوا إلى المشرق .

قال : وكانت تسمية الأربعة عشر منهم الذين يؤول إليهم أمرهم : « العاقب » ، وهو « عبد المسيح » ، والسيد ، وهو « الأيهم » ، و « أبو حارثة بن علقمة » أخو بكر بن وائل ، وأوس ، والحارث ، وزيد ، وقيس ، ويزيد ، ونبیه ، وخويلد ، وعمر ، وخالد ، وعبد الله ، ويحس : فى ستين ركباً ، فكلّم رسول الله ﷺ منهم : « أبو حارثة بن علقمة » ، و « العاقب » ، عبد المسيح ، و « الأيهم » السيد ، وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف من أمرهم ، يقولون : « هو الله » ، ويقولون : « هو ولد الله » ، ويقولون : « هو ثالث ثلاثة » ، وكذلك قول النصرانية .

فهم يحتاجون فى قولهم : « هو الله » ، بأنه كان يحيى الموتى ، ويبرئ الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً ، وذلك كله بإذن الله ، ليجعله آية للناس .

ويحتاجون فى قولهم : « إنه ولد الله » ، إنهم يقولون : « لم يكن له رب يعلم ، وقد تكلم فى المهد ، شئ لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله » .

ويحتاجون فى قولهم : « إنه ثالث ثلاثة » ، بقول الله عز وجل : « فعلنا وأمرنا ، وخلقنا ، وقضينا » ، فيقولون : « لو كان واحداً ما قال : إلا فعلت ، وأمرت ، وقضيت ، وخلقنا » ، ولكنه هو وعيسى ومريم » .

ففى كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن ، وذكر الله لنبيه ﷺ فيه قولهم .

فلما كلمه الخبران قال لهما رسول الله ﷺ : أسلما ! قالا : قد أسلما ، قال : إنكما لم تسلما ، فأسلما ! قالا : بلى قد أسلما قبلك ! قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله عز وجل ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير ، قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله ، صدر « سورة آل عمران » إلى بضع وثمانين آية منها ، فقال : ﴿ ألم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ، فافتتح السورة بتبرئته نفسه تبارك وتعالى مما قالوا ، وتوحيده إياها بالخلق والأمر ، لا شريك له فيه - رداً عليهم ما ابتدعوا من الكفر ، وجعلوا معه من الأنداد - واحتجاجاً عليهم بقولهم فى صاحبهم ، ليعرفهم بذلك ضلالتهم ، فقال : ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ ، أى : ليس معه شريك فى أمره » (١) . وعن الربيع فى قوله : ﴿ ألم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ، قال : « إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ ، فخاصموه فى عيسى ابن مريم وقالوا له : من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان ، لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، فقال لهم النبى ﷺ :

(١) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٥١ - ١٥٣

ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ! قال : ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ! قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شئ يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى ! قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا ! قال : أفلستم تعلمون أن الله عز وجل لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا : بلى ! قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم ؟ قالوا : لا ! قال : : فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء ، فهل تعلمون ذلك ؟ قالوا : بلى ! قال : ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ! قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم الطعام ، ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ! قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ قال : فعرفوا ، ثم أبوا إلا جحوداً ، فأنزل الله عز وجل (ألم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ﴿ ١ ﴾ .

وعن محمد بن جعفر بن الزبير : « ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ ، أى : الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره » ﴿ ٢ ﴾ .

وعن محمد بن جعفر بن الزبير : « ﴿ إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ﴾ ، أى : قد علم ما يريدون وما يكيدون وما يضاھون بقولهم فى عيسى ، إذ جعلوه رباً وإلهاً ، وعندهم من علمه غير ذلك ، غرة بالله وكفراً به » ﴿ ٣ ﴾ .

وعن محمد بن جعفر بن الزبير : « ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ ﴿ ٤ ﴾ ، أى : قد كان عيسى ممن صور فى الأرحام ، لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه ، كما صور غيره من بنى آدم ، فكيف يكون إلهاً وقد كان بذلك المنزل ؟ » ﴿ ٥ ﴾ .

(٢) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٦٣

(٤) سورة آل عمران ٦

(١) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٥٤

(٣) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٦٦

(٥) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٦٧

وعن الربيع : « ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ (١) ، أى : أنه صور عيسى فى الرحم كيف شاء » (٢) .

وعن الربيع قال : « عمدوا - يعنى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من نصارى نجران - فخاصموا النبى ﷺ ، قالوا : أأنت تزعم أنه كلمة الله وروح منه ؟ قال : بلى ! قالوا : فحسبنا ! فأنزل الله عز وجل ﴿ فأمّا الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ﴾ ، ثم إن الله جل ثناؤه أنزل ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ (٣) » (٤) .

وعن ابن عباس قوله : « ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (٥) ، وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد ﷺ - وكان فيهم السيد والعاقب - فقالوا لمحمد : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : عيسى ، تزعم أنه عبد الله ! فقال محمد : أجل ، إنه عبد الله ، قالوا له : فهل رأيت مثل عيسى ، أو أنبت به ؟ ثم خرجوا من عنده ، فجاءه جبريل صلى الله عليه وسلم بأمر ربنا السميع العليم فقال : قل لهم إذا أتوك : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ إلى آخر الآية » (٦) .

وعن عكرمة قوله : « ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ ، قال : نزلت فى العاقب والسيد من أهل نجران ، وهما نصرانيان - قال ابن جريج : بلغنا أن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النبى ﷺ ، فيهم السيد والعاقب ، وهما يومئذ سيدا أهل نجران ، فقالا : يا محمد ، فيم تشتم صاحبنا ؟ قال : من صاحبكما ! قال : عيسى ابن مريم ، تزعم أنه عبد ! قال رسول الله : أجل ، إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فغضبوا وقالوا : إن كنت صادقاً فأرنا عبداً يحيى الموتى ، ويبرئ الأكفم ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه ، الآية ،

(٢) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٦٧

(٤) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٦٧

(٦) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٦٨

(١) سورة آل عمران ٦

(٣) سورة آل عمران ٥٩

(٥) سورة آل عمران ٥٩

لكنه الله ، فسكت حتى أتاه جبريل فقال : يا محمد ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ (١) الآية ، فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل ، إنهم سألوني أن أخبرهم بمثل عيسى ، قال جبريل : ﴿ مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ﴾ ، فلما أصبحوا عادوا ، فقرأ عليهم الآيات » (٢) .

وعن قتادة قوله : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ ، أى : فى عيسى أنه عبد الله ورسوله ، من كلمة الله وروحه ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ﴾ إلى قوله ﴿ على الكاذبين ﴾ (٣) « (٤) .

وعن عامر قال : « فأمر - يعنى النبى ﷺ - بملاعتهم - يعنى : بملاعة أهل نجران - بقوله ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ الآية ، فتواعدوا أن يلاعونه ، وواعدوه الغد ، فانطلقوا إلى السيد والعاقب وكانا أعقلهم ، فتابعاهم ، فانطلقوا إلى رجل منهم عاقل ، فذكروا له ما فارقوا عليه رسول الله فقال : ما صنعتم !! وندمهم ، وقال لهم : إن كان نبياً ثم دعا عليكم لا يغضبه الله فيكم أبداً ، ولئن كان ملكاً فظهر عليكم لا يستبقيكم أبداً ، قالوا : فكيف لنا وقد واعدنا ! فقال لهم : إذا غدوتم إليه فعرض عليكم الذى فارقتموه عليه ، فقولوا : « نعوذ بالله » ! فإن دعاكم أيضاً فقولوا له : « نعوذ بالله » ! ولعله أن يعفيكم من ذلك ، فلما غدوا غدا النبى ﷺ محتضناً حسناً أخذاً بيد الحسين ، وفاطمة تمشى خلفه ، فدعاهم إلى الذى فارقه عليه بالأمس ، فقالوا : « نعوذ بالله » ! ثم دعاهم فقالوا : « نعوذ بالله » ! مراراً قال : فإن أبيتم فأسلموا ولكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين كما قال الله عز وجل ، فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون كما قال الله عز وجل ، قالوا : ما نملك إلا أنفسنا ! قال : فإن أبيتم فإنى أنبذ إليكم على سواء كما قال الله عز وجل ، قالوا : ما لنا طاقة بحرب

(٢) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٧٠

(١) سورة المائدة ١٧

(٤) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٧٥

(٣) سورة آل عمران ٦١

العرب ، ولكن نؤدى الجزية ، قال : فجعل عليهم فى كل سنة ألفى حلة : ألفاً فى رجب ، وألفاً فى صفر ، فقال النبى ﷺ : لقد أتانى البشير بهلكة أهل نجران ، حتى الطير على الشجر - أو : العصافير على الشجر - لو تموا على الملاعنة « (١) .

بل إن المناظرة والمجادلة بين النبى ﷺ ووفد نصارى نجران لم تقتصر على أمر عيسى عليه السلام ودينهم ، وإنما تجاوزت ذلك إلى المجادلة بين نصارى نجران واليهود فى أمر إبراهيم عليه السلام .

وعن ابن عباس قال : « اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ! وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرياناً ! فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ ، قالت النصارى : كان نصرياناً ! وقالت اليهود : كان يهودياً ! فأخبرهم الله أن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده ، وبعده كانت اليهودية والنصرانية « (٢) .

مما سبق يتضح أن المجادلة والمناظرة - من قبل وفد نصارى نجران - لم تكن بهدف الوصول إلى الحق ، وإنما أرادوا الباطل الذى مالوا إليه ، ابتغاء للفتنة - الصد عن سبيل الله (٣) - بتأويل ما تشابه من آيات الله بالاحتمال الذى يتفق مع ضلالهم وأهوائهم وشهواتهم من أوجه الاحتمالات ، للتلبيس والتشكيك فى نبوته صلى الله عليه وسلم .

وذلك لأن معرفة دلالة الآيات المتشابهات - ما تعددت فيها أوجه الاحتمالات مثلاً - تكون بإرجاعها إلى الآيات المحكمات .

عن محمد بن جعفر : « ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، يقول : وما يذكر فى مثل هذا يعنى فى رد تأويل المتشابه إلى ما قد عرف من تأويل المحكم ، حتى يتسقا على معنى واحد ، إلا أولوا الألباب « (٤) .

(١) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٧٨ (٢) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٩٠

(٣) لأنهم أهل كتاب . والعرب تعرف ما لديهم من علم بالنبوة ، وكذلك تضليل لأتباعهم .

(٤) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٢١١

فالآيات المحكمات قد بينت جميع ما أثاره وفد نصارى نجران من شبهة ،
حيث بينت وحدانيته فى ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته بكل وضوح لا لبس
فيه .

وعما سبق فإن وفد نصارى نجران قالوا : - للنبي ﷺ - أأنت تزعم أنه
كلمة الله وروح منه ؟ قال : بلى ! قالوا : « حسبنا » ، ولمزيد من
الإيضاح والبيان نذكر النقاط التالية :

١ - إن كل شئ يريد به الله تعالى يكون بلفظ « كن » وليس هو لفظ « كن » .
قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (١) .
ولذلك فإن عيسى عليه السلام خلق بكلمة « كن » وليس هو كلمة « كن » .
قال تعالى ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له
كن فيكون ﴾ (٢) .

٢ - إن إضافة الروح والرسول والناقة وغيرها مما يمكن أن يقوم بنفسه إلى
الله تعالى إضافة مخلوق لخالقه ، للتخصص والتشريف .
قال تعالى - فى قصة خلق آدم عليه السلام - ﴿ وإذ قال ربك للملائكة
إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي
فقعوا له ساجدين ﴾ (٣) .

ولذلك فإن آدم وعيسى عليهما السلام قد خلقا بأمره تعالى بكلمة « كن » .
وكذا أضاف سبحانه الروح فى خلقهما إليه تعالى ، وخلق آدم عليه السلام
دون أب أو أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، ولم تكن لآدم
عليه السلام عند بعض النصارى تلك المنزلة التى لعيسى عليه السلام .

٣ - إن للتفسير أصوله وقواعده المعروفة عند العلماء والدارسين ، وفى
طليعتها تفسير القرآن بالقرآن ، وبالسنة النبوية وبلغه القرآن وغيرها ،
وكمثال على ذلك مما يتفق مع موضوع بحثنا بإيجاز :

(٣) سورة الحجر ٢٨ - ٢٩

(٢) سورة آل عمران ٥٩

(١) سورة يس ٨٢

قال تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا ﴾ (١) .
 ف « كلمته » قيل المراد بها بشارة الله تعالى لمريم إن المراد ب « كلمته » الأمر الإلهي الكوني بأن تحمل مريم بعيسى عليهما السلام ، وهو الراجع .
 وقد بشرت الملائكة مريم بذلك .

قال تعالى ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ (٢) .
 و « منه » في « روح منه » متعلق بمحذوف وقع صفة للروح أى كائنة منه سبحانه بأمره تعالى .

قال تعالى ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ (٣) .

فالضمير « فيها » يعود إلى أم عيسى عليه السلام ، فما المراد ب « روحنا » هل هو روح عيسى عليه السلام أم الأمر الإلهي الكوني بأن تحمل أم عيسى عليه السلام به ، وأنه بعد مضي ١٢٠ يوماً من بدء الحمل جاء جبريل عليه السلام ، ونفخ في عيسى عليه السلام (٤) .

قال تعالى ﴿ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ (٥) .

والضمير « فيه » يعود إلى الفرج ، والمقصود من في الفرج ، وهو عيسى عليه السلام - الجنين - وإن التصديق تم بعد نفخ الروح فيه - بعد ١٢٠ يوماً من بدء الحمل - وتبين الحمل فعلى هذا يكون المراد ب « نفخنا فيها من روحنا »

(٣) سورة الأنبياء ٩١

(٢) سورة آل عمران ٤٥

(١) سورة النساء ١٧١

(٤) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض للمؤلف . ص ١٢٣ - ١٢٤

(٥) سور التحريم ١٢

الأمر الإلهي بالحمل ، وبـ « تفخنا فيه من روحنا » الروح التي منحها الله تعالى لعيسى عليه السلام بعد مضي ١٢٠ يوماً ، من باب إطلاق السبب على المسبب (١) .

وكذلك جميع خلقه منه تعالى .

قال تعالى : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون ﴾ (٢) .

وإضافة الروح إلى الله تعالى من باب التشريف والتفضيل والتخصيص والمنازل في تفاوت بين الدرجات .

فالتفضيل والتشريف من الله تعالى لعيسى منحه المعجزات لإثبات نبوته وتقويته . قال تعالى : ﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (٤) .

كما كان التشريف والتفضيل من الله تعالى للإنسان على جميع خلقه .

قال تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (٥) .

وروى سبب آخر لنزول أوائل سورة آل عمران بسند ضعيف نوره مع ضعفه ، ليكون مثالا للمتشابه .

عن جابر بن عبد الله بن رثاب ، قال : « مر أبو ياسر بن أخطب

(١) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض للمؤلف . ص ١٢٣ .

(٣) آل عمران ٤٦

(٢) سورة السجدة ٧ - ٩

(٥) سورة الإسراء ٧٠

(٤) سورة آل عمران ٤٩

برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ (١) ، فأتى أخاه حبي بن أخطب من يهود فقال : تعلمون والله ، لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله عز وجل عليه ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ ، فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم ! قال : فمشى حبي بن أخطب فى أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ : بلى ! فقالوا : أجهلك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال : نعم ! قالوا : لقد بعث الله جل ثناؤه قبلك أنبياء ، ما نعلمه بين نبي منهم ، ما مدة ملكه وما أكل أمته غيرك ! فقال : حبي بن أخطب ، وأقبل على من كان معه فقال لهم : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، أفتدخلون فى دين نبي إنما مدة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ قال : ثم أقبل على رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم ! قال : ماذا ؟ قال : (المص) (٢) ، قال : هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه مئة وإحدى وستون سنة ، هل مع هذا يا محمد غيره ، قال : نعم ! قال : (ألر) (٣) ، قال : هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مئتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومئتا سنة ، فقال : هل مع هذا غيره يا محمد ؟ قال : نعم ، (ألر) (٤) ، قال : فهذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مئتان ، فهذه إحدى وسبعون ومئتا سنة ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد ، حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً ؟ ثم قاموا عنه ، فقال أبو ياسر لأخيه حبي بن أخطب ، ولمن معه من الأحبار : ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد ، إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومئة ، ومئتان وإحدى وثلاثون ،

(٢) سورة الأعراف ١

(١) سورة البقرة ١-٢

(٤) سورة الرعد ١

(٣) سورة يونس ١ ، هود ١ ، يوسف ١ ، إبراهيم ١ ، الحجر ١

ومثتان وإحدى وسبعون ، فذلك سبعمئة سنة وأربع وثلاثون ! فقالوا : لقد تشابه علينا أمره ! ويزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ (١) (٢) .

فأهل الباطل والضلال ممن عميت قلوبهم تدفعهم شهواتهم وأهواؤهم إلى الباطل بالتشكيك والتليس فى تأويل الآيات المتشابهات ، وإن كان الرجوع فى تأويلها إلى الآيات المحكمات يبين لهم خطأ تأويلهم ، وذلك لأن أجل النبى ﷺ وأجل أمته من الغيبات التى لا يعلمها إلا الله .

قال تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ (٣) .

وإذا كانت تلك أسباب نزول الآيات القرآنية فى أوائل سورة آل عمران ، فإن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، حيث إن هذه الآيات تتناول كل ضال أو مبتدع يتأول الآيات القرآنية المتشابهة - المحتملة لعدة أوجه من الاحتمالات مثلاً - بما يتفق مع ضلاله وبدعته ، ولو كان مخالفاً لدلالة الآيات المحكمات .

عن قتادة فى قوله : « (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) ، وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) قال : إن لم يكونوا الحرورية والسبائية ، فلا أدرى من هم ! ولعمرى لقد كان فى أهل بدر والحديبية الذين شهدوا مع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار خبر لمن استخبر ، وعبرة لمن استعبر ، لمن كان يعقل أو يبصر ، إن الخوارج خرجوا وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير بالمدينة

(٢) تفسير الإمام الطبرى ، ج ١ ، ص ٢١٧

(١) سورة آل عمران ٧

(٣) سورة لقمان ٣٤

والشام والعراق ، وأزواجه يومئذ أحياء ، والله إن خرج منهم ذكر ولا أنثى
حرورياً قط ، ولا رضوا الذين هم عليه ، ولا مالأوهم فيه ، بل كانوا
يحدثون بعيب رسول الله ﷺ إياهم ونعته الذى نعتهم به ، وكانوا يبغضونهم
بقلوبهم ، ويعادونهم بالسنتهم ، وتشدد والله عليهم أيديهم إذا لقوهم ،
ولعمري لو كان أمر الخوارج هدى لاجتمع ، ولكنه كان ضلالاً ففرق ،
وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافاً كثيراً ، فقد أوصوا
هذا الأمر منذ زمان طويل ، فهل افلحوا فيه يوماً أو أنجحوا ؟ يا سبحان الله ؟
كيف لا يعتبر آخر هؤلاء القوم بأولهم ؟ لو كانوا على هدى ، قد أظهره الله
وأفله ونصره ، ولكنهم كانوا على باطل أكذوبه الله وأدحضه ، فهم كما
رأيتهم ، كلما خرج لهم قرن أدحض الله حجتهم ، وأكذب أحدوثتهم ،
وأهراق دماءهم ، إن كنتموا كان قرحاً فى قلوبهم ، وغماً عليهم ، وإن
أظهروه أهراق الله دماءهم ، ذاكم والله دين سوء فاجتنبوه ، والله إن اليهودية
لبدعة ، وإن النصرانية لبدعة ، وإن الحرورية لبدعة ، وإن السبائية لبدعة ، وما
نزل بهن كتاب ولا سنهن نبي » (١) .

* * *

• المبحث الرابع .

أدلة تدل على القراءتين :

أدلة تدل على دلالة قراءة الوقف

لقد وردت بعض القراءات الشاذة والأحاديث والآثار والتفسيرات التى تتفق
مع قراءة الوقف عن الصحابة والتابعين والعلماء من أئمة الإسلام ، ومنها :

١ - عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قرأ ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ويقول
الراسخون فى العلم آمناً به ﴾ (٢) .

(١) تفسير الإمام الطبرى . ج٦ ، ص ١٨٧ - ١٨٩ وأنظر تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٣٤٦

(٢) تفسير الإمام الطبرى ، ج٦ ، ص ٢٠٢

٢ - وعن أبي عبد الله بن مسعود أنه قرأ ﴿ إِنَّ تَأْوِيلَهُ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴾ (١) .

فالواو للاستئناف ، و « الراسخون » مبتدأ .

٣ - عن عائشة رضى الله عنها قوله ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ ، قالت : « كَانَ مِنْ رَسُوخِهِمْ فِي الْعِلْمِ أَنْ آمَنُوا بِحُكْمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا تَأْوِيلَهُ » (٢) .

٤ - عن مالك رضى الله عنه فى قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، قال : « ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ وَلَيْسَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ » (٣) .

٥ - عن هشام بن عروة أنه قال : « كَانَ أَبِي يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ » (٤) .

٦ - عن أبى نهيك الأسدى قوله : « ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ فَيَقُولُ : إِنَّكُمْ تَصْلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَإِنَّهَا مَقْطُوعَةٌ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ ، انْتَهَى عِلْمُهُمْ إِلَى قَوْلِهِمْ الَّذِي قَالُوا » (٥) .

٧ - عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا ثَلَاثَ خِلَالٍ : أَنْ يَكْثُرَ لَهُمُ الْمَالُ فَيَتَحَاسَدُوا فَيَقْتُلُوا ، وَأَنْ يَفْتَحَ لَهُمُ الْكِتَابُ فَيَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ بِيَتْنَى تَأْوِيلَهُ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ... » (٦) .

٨ - كما قال بعض العلماء : « إِنَّ فِي قِرَاءَةِ الْوَقْفِ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ مُعَادِلًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ (٧) .

(١) تفسير الإمام الطبري ، ج٦ ، ص٢٠٤ (٢) تفسير الإمام الطبري ، ج٦ ، ص٢٠٢

(٣) تفسير الإمام الطبري ، ج٦ ، ص٢٠٣ (٤) تفسير الإمام الطبري ، ج٦ ، ص٢٠٢

(٥) تفسير الإمام الطبري ، ج٦ ، ص٢٠٢

(٦) تفسير الإمام الطبري ، ج٦ ، ص... تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص٣٤٦

(٧) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، ج٣ ، ص١٦٥ - ١٦٦

وهذا غير لازم لأن المعادل يمكن أن يكون محذوفاً على قراءة الوصل كما سيأتى .

٩ - إن وصف الله تعالى العلماء بالراسخين فى العلم فى قوله ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ يدل على أن الرسوخ إنما كان بعد تدبر وتأمل فى القرآن ودلالاته ، وإدراكهم أن هناك ما خفى عقلاً وشرعاً مما استأثر الله بعلمه فى كتابه ، دون معارضة أو انفصام عقلى بين دلالة الآيات المحكمات والمتشابهات ، بل يشهد بعضها لبعض دون تعارض أو اضطراب أو خلل .

ولذلك فإن من رسوخهم فى العلم معرفة ما يمكن تأويله ، وما لا يمكن تأويله مما استأثر الله بعلمه ^(١) ، وكذا إدراكهم ما يجب أن يكون عليه القرآن مما لا يمكن أن يحيط به إنسان كصفات الله تعالى وصفات الجنة والنار ... إلخ ، ولذا قالوا ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ .

١٠ - إن مفهوم « المحكم » و « المتشابه » وكذا « التأويل » على القراءتين يختلف بما يتناسب مع دلالة القراءتين ، وهما من القراءات المختلفة فى دلالاتها لتعطى أحكاماً مختلفة فى حالات مختلفة ، ف « التأويل » على قراءة الوقف بمعنى إدراك الحقائق الغائبة عن الإدراك العقلى ، أى حقيقة الشيء وما يؤول إليه . كقوله تعالى ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ ^(٢) . وقوله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ﴾ ^(٣) . و « المتشابه » بمعنى ما استأثر الله بعلمه . ومن أمثلة ذلك :

قال تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتهم الله فى ظلل من الغمام ﴾ ^(٥) .

وقال تعالى ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ ^(٦) .

ولا شك أن الآيات السابقة تتضمن فى دلالاتها ما استأثر الله بعلمه ، ولذلك

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، ج ٣ ، ص ١٦٥

(٢) سورة يوسف ٤٤ (٣) سورة الأعراف ٥٣

(٤) سورة طه ٥ (٥) سورة البقرة ٢١٠

(٦) سورة الزمر ٦٧

ولا شك أن الآيات السابقة تتضمن فى دلالاتها ما استأثر الله بعلمه ،
ولذلك فإن ظاهر الآيات - كحقائق غائبة - غير مراد ، ولا يمكن أن يدعى
أحد أن ما أول به هو المراد ، لأنه لا علم له بها على حقيقتها إلا بدليل ،
وهو ما لم يتوافر للمكلف ، كما أن العقل الإنسانى لا قدرة له على إدراك
الحقائق الغائبة عن حواسه وتصوراته لأن الرسم الذهنى لديه لمحسوساته فى
عالمه ، وهناك فرق بين حقائق عالمه المشاهد والحقائق الغائبة عنه (١) وإن
اتفقت الألفاظ فى الدلالة عليهما .

و« المحكم » ما اتضح معناه ودلالته بنفسه أو يغيره من نص شرعى أو عقلى
ولذا فإن من المحكم ما احتمال أوجهها ثم ردت إلى وجه واحد ، وكذا ما
كان ظاهره التعارض مع دليل آخر ثم أمكن الجمع بينهما ، وهكذا .

ومن التعاريف السابقة للمحكم والمتشابه ندرك أن القرآن ينقسم بالنسبة
للعلماء الراسخين فى العلم إلى قسمين ، وهما :
أ - متشابه لا يعلمه إلا الله تعالى دون غيره سبحانه .

ب - محكم وهو يتناول ما اتضح دلالاته بنفسه من الآيات القرآنية ، أو ما
اتضح بغيره من الأدلة الشرعية الأخرى ، أو الأدلة العقلية ، وهذا بالجملة لا
يعلمه إلا الراسخون فى العلم .

وهذا يبين مدى أهمية العلم وأهله ، وما يجب أن يكونوا عليه من هداية
المكلفين ، وكذا ما ينبغى أن يكون لهم من منزلة لدى المكلفين .

١١ - اتفاق علماء الأمة على أن هنالك « ما استأثر الله تعالى بعلمه فى
كتابه » وإن اختلفوا فى تحديد موضوعاته وأماكنه فى القرآن الكريم ، كما أن
ما استأثر الله بعلمه بالنسبة للعلماء الراسخين فى العلم متفاوت ، للاختلاف
فيما بينهم فى تحصيل العلم بالقرآن ، وأدواته واستثماره (٢) .

ولذلك نجد المقلين فى تحديد دائرة المتشابه ، كما نجد المكثرين ، ونجد أن
صاحب كل مذهب يرى أن ما وافق مذهبه من المحكم ، وما خالفه من المتشابه .

(١) الإنسان وجوده وخلافته فى الأرض للدكتور عبد الرحمن المطرودى ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، ج ٣ ، ص ١٦٦

وقد حاول بعض العلماء دراسة ذلك الاختلاف ونتائجه ، للخروج ببعض المقارنات والدلالات والترجيحات ، لنحصل على تراث كبير من هذه الدراسات صنفت في الفكر الإسلامى فى علم الكلام ، أو فى الفلسفة الإسلامية . ولذلك فإن للمكثرين فى التشابه مناهجهم المختلفة كالظاهرية الذين أخذوا بظاهر النصوص دون أن يتناولوها ببيان المراد منها ، وكذا الباطنية الذين أخذوا كثيراً من المعانى الباطنية للنصوص حسب أهوائهم ومعتقداتهم ، ليخرجوا بكثير من المعانى الباطنية التى قد لا تتفق مع ظاهر النصوص ، مما جعلهم فى كثير منها يأخذون بتلك المعانى الباطنية على أنها هى مراد الشارع ، وقد يتركون ظاهرها على أنها غير مراد .

وكذلك المعتزلة الذين وضعوا أصولهم الخمسة حكماً على النصوص القرآنية ، فما اتفق معها فهو من المحكم كقوله تعالى ﴿ وقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ (١) . وأما ما اختلف معها فيوصف بالمتشابه كقوله تعالى ﴿ وما تشاءون إِلَّا أَنْ يُشَاءَ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (٢) .

ولكن أهل السنة والجماعة يرون أن الآيتين من الآيات المحكمات حيث جمعوا بين دلالتيهما ، فالمشيئة أو الإرادة لله تعالى تنقسم قسمين ، وهما : الإرادة الكونية ، والإرادة الشرعية ، وإن مشيئة الإنسان وإرادته لا تخرج عن الإرادة الكونية لله تعالى ، كما أن الله تعالى يتصف بالعلم الأزلى .

والمتفق عليه بين علماء الأمة الإسلامية أن حقائق المغيبات عن حواس الإنسان مما استأثر الله بعلمه ، وهذا ما يتفق مع طبيعة الإنسان التى خلق عليها ، كحقائق صفات الله تعالى ، وصفات الجنة والنار ، وصفات الملائكة ، كما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى .

وقد ساق بعض العلماء الأدلة التى تدل على النهى عن الخوض فى التشابه كأدلة على قراءة الوقف ، وكأن قراءة الوصل لا تدل على ذلك إن نص الآية

(٢) سورة الإنسان ٣٠

(١) سورة الكهف ٢٩

فى القراءتين يدل على ذلك ، وكذلك الاستدلال بوصف الرسوخ فى قوله تعالى ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ على دلالة قراءة الوصل حيث إنهم موصوفون بذلك على القراءتين كما سبق .

وإن القارىء فى موضوع « المحكم » والمتشابه « فى كتب التفسير وغيرها كثيراً ما يجد استخدام تلك الأدلة لترجيح قراءة الوقف على قراءة الوصل ، وقد سبق أن أوضحنا أن القراءتين متواترتين ، ولا يجوز ترجيح قراءة قرآنية على أخرى ، وإن ما جاءت عليه كتب التفسير القديمة يجب حملها على تفسير قراءة المفسر رواية أو اختياراً أو تقليداً لقراءة إمام من الأئمة ، ولذلك لا يتابع فى ذلك ، وقد دونت القراءات المتواترة ، وعرفت وطبعت وانتشرت بين الدارسين من المسلمين ، كما لا يتابع فى الأخذ بقراءة شاذة ، أو رد قراءة متواترة (١) .

ولذلك نقول : ممن روى عنه القراءة أو القراءة والتفسير بما يتفق مع دلالة قراءة الوقف من الصحابة ، والتابعين وأتباعهم : عائشة ، وعبد الله بن مسعود ، وابن عمر ، وأبى بن كعب ، وعروة بن الزبير ، ومالك ، وجابر بن عبد الله ، والشعبي ، وسفيان ، رضى الله عنهم (٢) .

● أدلة تدل على دلالة قراءة الوصل :

وكذلك وردت بعض القراءات الشاذة والآثار والتفاسير ، التى تتفق مع قراءة الوصل عن الصحابة والتابعين والعلماء المسلمين ، ومنها :

١ - عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله » (٣) .

٢ - وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « أنا ممن يعلم تأويله » (٤) .

(١) انظر القراءات القرآنية للدكتور عبد الرحمن المطرودى ، ص ٢٥ - ٤٧

(٢) فتح القدير للإمام الشوكانى ، ج ١ ، ص ٣١٤ - ٣١٥ التحرير والتنوير لابن عاشور ، ج ٣ ، ص ١٦٥ (٣) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٤٧

(٤) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٢٠٣

٣ - وعن مجاهد رضى الله عنه أنه قال : « والراسخون فى العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به » ، وكذا عن الربيع بن أنس (١) .

٤ - ما روى عن النبى ﷺ فى دعائه لابن عباس : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » (٢) .

فإذا كان التأويل مما لا يعلمه إلا الله تعالى فلا فائدة لهذا الدعاء .

٥ - وعن محمد بن جعفر بن الزبير : « ﴿ وما يعلم تأويله ﴾ الذى أراد ما أراد ؟ ﴿ إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ فكيف يختلف ، وهو قول واحد من رب واحد ؟ ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمة التى لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، فأتسق بقولهم الكتاب ، وصدق بعضه بعضاً ، فنفذت به الحجة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودمغ به الكفر » (٣) .

٦ - وعن النعمان بن بشير قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه » (٤) .

فقوله صلى الله عليه وسلم « لا يعلمها كثير من الناس » يعنى أن القليل منهم يعلم المتشابهات ، وهم الراسخون فى العلم .

٧ - وقال بعض العلماء : إن الله تعالى قد مدح العلماء الراسخين فى العلم بقوله تعالى ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ وذلك يدل على معرفتهم بكتاب الله تعالى ، وأن ليس فى القرآن ما استأثر الله بعلمه بالنسبة لهم فيما يتعلق بدلالاته ومعانيه دون إدراك للرسم الذهني للحقائق الغائبة كما سبق .

(١) تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص٣٤٧ ، تفسير الإمام الطبرى ، ج٦ ، ص٢٠٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص٣٤٧ .

(٣) تفسير الإمام الطبرى ، ج٦ ، ص٢٠٣ - ٢٠٤ سيرة ابي هشام ، ج٢ ، ص٢٢٦ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، ج١ ، ص١٩ .

٨ - إن الله تعالى قد خاطب المكلفين بكتابه العزيز ، وهو كتاب هداية لهم ، وذلك لا يكون بما لا يعلم من قبلهم .

وهذا غير لازم من كل وجه حيث إن دلالاته ومعانيه واضحة دون إدراك حقائق المغيبات عن الحواس ، وهو ما يتفق عليه الجميع كما سبق ، لحكمة عالية تتفق مع خصائص الإنسان وغاياته في هذا الوجود كما سيأتى إن شاء الله .

٩ - كما قال بعض العلماء : إن فى قراءة الوصل فى قوله تعالى ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ ما يدل على مفهوم قراءة الوصل الذى يعنى أن مزية العلماء الراسخين فى العلم علمهم بالمشابه والتفريق بين ما يصح تأويله وما لا يصح تأويله (١) .

١٠ - قال تعالى ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (٢) أى أتقنت وفصلت وبينت من حكيم خبير .

ولذلك فإن مفهوم « التأويل » و « المحكم » و « المتشابه » على قراءة الوصل كما يأتى :

- التأويل : بمعنى التفسير ، وما يدل على ذلك ما جاء فى دعاء النبى ﷺ لابن عباس فى قوله « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

- المحكم : الآيات الواضحات البينات بنفسها دون حاجتها فى ذلك إلى أدلة أخرى .

المتشابه : الآيات التى تحتاج فى إيضاها وبيانها إلى أدلة أخرى من الأدلة الشرعية أو العقلية أو اللغوية أو المعارف البشرية ، مثل العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والإعجاز العلمى .

يتضح مما سبق دلالة القراءتين المتواترتين ، واتفاق العلماء على ذلك ، وأن القراءتين لا تعارض أو تضاد بينهما ، وإنما هما من القراءات المختلفة لتعطى أحكاماً مختلفة فى حالات مختلفة ، والله أعلم .

* * *

المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم (١)

د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى

أستاذ مشارك فى قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية - جامعة الملك سعود

المبحث الخامس

آراء العلماء فى مفهوم المحكم والمتشابه :

لقد اختلف العلماء فى تحديد مفهوم المحكم والمتشابه ، وتعددت الآراء فى قوله (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) . (٢)

وقبل التعرض لتعاريف المحكم والمتشابه يحسن أن نبين النقاط الآتية :

١ - أن القرآن ينقسم قسمين وهما : المحكم والمتشابه ، وهما لفظان لمفهومين متقابلين ، لقول تعالى (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) .

٢ - أن فى الآية قراءتان متواترتان ، وهما قراءة الوقف على لفظ الجلالة « الله » ، وقراءة الوصل ، كما سبق فى قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) .

ولذلك فإن المتشابه على القراءتين ينقسم قسمين ، وهما :

(أ) المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله تعالى .

(ب) المتشابه الذى يعلمه الراسخون فى العلم .

(١) تكملة البحث الذى نشر فى العدد الأول . من السنة الثانية ، شوال ١٤١٤ هـ - أبريل

١٩٩٤ م ، (الإصدار الرابع) ص ١٩٥ - ٢٢١ .

(٢) سورة آل عمران ٧ .

ولذلك فإن مفهوم المتشابه على قراءة الوصل غير مفهوم المتشابه على قراءة الوقف ، والمحكم فى مقابل المتشابه على القراءتين ، ولذا فإن مفهوم المحكم على قراءة الوصل غير مفهوم المحكم على قراءة الوقف .
والتأمل فى آراء العلماء فى تعريف المحكم والمتشابه يظهر له تعاريف على ثلاثة اتجاهات ، وهى :

١ - التعاريف التى تتفق مع قراءة الوقف (١)

(أ) المحكم : هو ما عرف المراد منه إما بالظهور ، وإما بالتأويل .
المتشابه : هو ما استأثر الله تعالى بعلمه كقيام الساعة ، وخروج الدجال .

وهو اختيار أهل السنة ، ورواية عن مالك ، ونسب للحنفية .

(ب) المحكم : هو ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره .

المتشابه : هو ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل .

وهو مروى عن جابر بن عبد الله ، والشعبي ، وسفيان الثوري .

(ج) المحكم : هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره .

المتشابه : هو ما لا يتضح معناه أو تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره .

وهو تعريف الشوكاني فى تفسيره .

(د) المحكم : هو الواضح الدلالة الظاهر الذى لا يحتمل النسخ .

(١) تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣١٤ .

تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٤٤ - ٤٤٥ .

تفسير القرطبي ، ج ٢ ، ص ١٢٥١ - ١٢٥٢ .

الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٢ .

المتشابه : هو الخفى الذى لا يدرك معناه عقلا ولا نقلا ، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه كالحروف المقطعة فى أوائل السور .
وهو يعزى للأحناف .

إن هذه التعاريف تتفق مع قراءة الوقف ، ولكن لا تتفق مع مفهوم المتشابه على قراءة الوصل ، الذى يعلمه العلماء الراسخون فى العلم ، وقد زاد التعريف الرابع (د) على ذلك بحصر المحكم فى آيات الأحكام التى لا تحتمل النسخ دون غيرها مما اشتمل عليه القرآن ، كما أن المتشابه فى تعريفه لم يكن فى مقابل المحكم ونقيضه .

٢ - التعاريف التى تتفق مع قراءة الوصل (١)

(أ) المحكم : هو الذى ليس فيه تصريف ولا تحريف مما وضع له .
المتشابه : ما فيه تصريف وتحريف وتأويل .
وهو مروى عن مجاهد وابن إسحاق وهو اختيار ابن عطية .
(ب) المحكم : هو ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره .

المتشابه : هو ما يرجع فيه إلى غيره .
حكى عن أحمد وحسنه النحاس .

-
- (١) فتح القدير للإمام الشوكانى ، ج ١ ، ص ٣١٤ .
تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٤٤ - ٤٤٥ .
تفسير الإمام الطبرى ، ج ٦ ، ص ١٧٤ - ١٧٩ .
روح المعانى للألوسى ، ج ٣ ، ص ٨٢ .
تفسير القرطبى ، ج ٢ ، ص ١٢٥١ - ١٢٥٣ .
تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، ج ٣ ، ص ١٥٦ .
المستصفى للإمام الغزالى ، ج ١ ، ص ١٠٦ .
الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٢ .

(ج) المحكم : هو الواضح المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال ، مأخوذ من الإحكام ، وهو الإتقان .

المتشابه : نقيضه .

وهو قريب من رأى الطبيعى .

(د) المحكم : هو ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً .

المتشابه : هو ما يحتمل أوجهاً ، وإذا أبطلت وبقي واحد منها صار محكماً .

مروى عن ابن عباس ، وعليه كثير من الأصوليين .

(هـ) المحكم : هو السديد النظم والترتيب الذى يفضى إلى إثارة المعنى المستقيم من غير مناف .

المتشابه : هو الذى لا يحيط العلم بالمعنى المطلوب من حيث اللغة إلا أن يقترن به أمانة أو قرينة .

وهو يعزى لإمام الحرمين .

(و) المحكم : ناسخه وحرامه وحلاله ، وفرائضه وما نؤمن به ونعمل به .

المتشابه : منسوخه وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل به .

وهو مروى عن ابن عباس .

(ز) المحكم : هو الناسخ .

المتشابه : هو المنسوخ .

وهو مروى عن ابن مسعود ، وقتادة ، والربيع ، والضحاك .

إن هذه التعاريف تتفق - كما سبق - مع مفهوم المتشابه على قراءة الوصل ، ولكنها لا تتفق مع مفهوم المتشابه على قراءة الوقف مما لا يعلمه إلا الله تعالى .

كما أن التعريف السادس (و) فى تعريفه للمحكم والمتشابه قد خصهما ببعض أوصاف القرآن ، كما أن قوله : ما نؤمن به ولا نعمل به ، يحتمل كثيراً من أوجه التفسير ، والجدال فى صحة هذه العبارة ، كما يمكن أن يكون قد جمع فى تعريفه للمتشابه بين ما يمكن معرفته من قبل العلماء الراسخين فى العلم ، وما لا يمكن فى قوله : ما نؤمن به ولا نعمل به .

وكذلك التعريف السابع (ز) فإنه لا يتفق مع مفهوم المحكم والمتشابه على قراءة الوقف ، وأيضاً فإنه حصرهما فى بعض آيات الأحكام .

٣ - التعريف الذى يتفق مع القراءتين

بعد النظر والتأمل فى كثير من تعاريف العلماء للمحكم والمتشابه ، لم أجد منها ما يتفق مع القراءتين فى الآية السابعة من سورة آل عمران ، ولعل التعريفين الذين يتفقان معهما هما :

المحكم : ما لا يحتاج إلى دليل آخر فى بيانه .

المتشابه : ما يحتاج إلى دليل آخر فى بيانه ، وهو إما أن يكون متوافراً أو غير متوافر .

فإن كان الدليل المبين متوافراً لغة أو شرعاً أو عقلاً كان مما يعلمه العلماء الراسخون فى العلم كالألفاظ المشتركة ، والناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد .

وإما إذا كان الدليل المبين غير متوافر ، فهو مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، كحقائق الصفات لله تعالى ، وصفات الملائكة ^(١) والجن ، والحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقيام الساعة .

(١) إلا ما ثبت من رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل على صورته .

المبحث السادس

منشأ التشابه

مما سبق فى تحديد التشابه على القراءتين فى آية (٧) من سورة آل عمران ، يتضح أن منشأ التشابه فى القرآن إجمالاً على ثلاثة أقسام ، وهى (١) :

القسم الأول : التشابه من جهة اللفظ :

وهو ما كان خفاء معناه ودلالته ناشئاً من جهة اللفظ المفرد أو من جهة التركيب للألفاظ .

أما التشابه من جهة اللفظ المفرد فضربان ، هما :

(أ) الألفاظ الغريبة : وهى ما قل استعمالها مما يجعل إدراكها من

الكل متعذر ، ومنه ما روي عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال :

« ما كنت أدري ما (فاطر السموات والأرض) (٢) حتى جاآنى

أعربيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا الذى فطرتها » (٣)

أى أوجدتها أو أنشأتها .

(ب) الألفاظ المشتركة : وهى تحتل أكثر من وجه فى دلالتها

ومعناها ، كلفظ « اليمين » فى قوله تعالى (فراغ عليهم ضرباً

باليمين) (٤) .

فهل المراد : اليد اليمنى ، أم القوة ، أم القسم فى قوله تعالى

(وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) (٥) .

أما التشابه من جهة التركيب للألفاظ فثلاثة أضرب ، وهى :

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

مناهل العرفان للزرقاني ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ - ٢٨١ .

(٢) سورة فاطر ١ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ، أول سورة فاطر .

(٤) سورة الصافات ٩٣ .

(٥) سورة الأنبياء ٥٧ .

(أ) ما كان على الاختصار فى الكلام ، فالإجاز فى الكلام مع إرادة كثير من المعانى ، قد يكون مصدراً للخفاء فى المعنى المراد .

كقوله تعالى (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) (١) .

والمعنى وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى إذا تزوجتموهن فلا تتزوجوهن وأنكحوا ما طاب لكم من النساء ، وقيل غير ذلك .

(ب) ما كان على البسط فى الكلام ، وهو غير الإطناب الذى يعتبر عيباً فى الكلام .

كقوله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

فالكاف قد توهم بإثبات المثلية لله تعالى ، تعالى الله عن ذلك ، لأن المعنى يكون (ليس مثل مثله شئ) والنفى يقتضى الإثبات ، وهذا كله غير مراد بشواهد كثيرة من القرآن ، ولذلك فإن قوله تعالى (ليس كمثله شئ) أبلغ من قولنا : « ليس مثله شئ » على عادة العرب واستعمالهم ، ولعل ذلك مما يشعر ببعد المسافة بين الخالق والمخلوق ، لأن المثل منفى ، ونفى مثل ذلك المنفى يوحى بتأكيد ذلك ، والله أعلم .

(ج) ما كان على ترتيب ونظم الكلام ، وهو يتعلق بالتقديم والتأخير فيه ، كقوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً) (١) .

فلفظ « قيماً » هل حقه أن يكون كما هو فى سياق الآية ، أم حقه التقديم ، والتقدير : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيماً .

(١) سورة النساء ٣ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

(٣) سورة الكهف ١ - ٢ .

القسم الثانى : المتشابه من جهة اللفظ والمعنى :

وينقسم إلى خمسة أضرب . وهى :

(أ) ما كان التشابه من جهة الكمية كالعموم والخصوص . قال تعالى
(وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن
يشاء ويعذب من يشاء) (١) .

وقال تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها
ما اكتسبت) (٢) .

فإن الآية الثانية مخصصة للآية الأولى .

(ب) ما كان التشابه من جهة الكيفية كالوجوب والندب والإباحة أو
التحريم والكراهية .

كقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث
ورباع) (٣) .

وقال تعالى (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين
فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً) (٤) .

فهل الأمر فى الآيتين للوجوب أم للندب أم للإباحة .

(ج) ما كان التشابه من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ كقوله تعالى

(يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم

صدقة) (٥)

(١) سورة البقرة ٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة ٢٨٦ .

(٣) سورة النساء ٣ .

(٤) سورة النساء ٨ .

(٥) سورة المجادلة ١٢ .

وقال تعالى (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذا لم تفعّلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) (١) .

هل بين الآيتين من تعارض ، وهل هما خبر أم إنشاء ، وهل الآية الثانية متأخرة عن الآية الأولى .

ولذلك قال كثير من العلماء بنسخ الآية الأولى بالآية الثانية .

(د) ما كان التشابه من جهة الزمان والمكان ولذلك يرتبط فهم الآية بالبيئة الاجتماعية وما تتصف به من عادات وتقاليد ومبادئ واصطلاحات في ذلك الزمان الذي أنزلت فيه الآية ، ومكانه .

كقوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) (٢) .

وقوله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون) (٣) .

وقوله تعالى (إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) (٤) .

(هـ) ما كان التشابه من جهة الشروط وهو ما كان التشابه فيه عائد إلى مناط الأدلة كشروط الوضوء ، وشروط الصلاة ، والزكاة والحج .

(١) سورة المجادلة ١٣ .

(٢) سورة البقرة ١٥٨ .

(٣) سورة البقرة ١٨٩ .

(٤) سورة التوبة ٣٧ .

كقوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم
ينفقون) (١) .

فالآية ليست كافية في بيان ما يجب أن تكون عليه الصلاة من
كيفية وصفة وشروط .

القسم الثالث : المتشابه من جهة إدراك الحقائق الغائبة :

وهو يتعلق بالحقائق الغائبة عن حواس الإنسان ، فالتخيل والتصور
عنده لا يتعد عن المحسوسات في عالمه ، والغائب غير الشاهد ، كحقيقة
الذات الإلهية ، وصفات الله تعالى وصفات الجنة والنار .

أما المعنى والدلالات فالإنسان يدرك شيئاً ما منها بما يتفق مع قدراته
وإمكانياته ، حيث إن الله تعالى قد قرب معانيها للأفهام بما يتناسب مع
ذلك ، والله أعلم .

قال تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

المبحث السابع

أنواع المتشابه :

مما سبق من دلالة القراءتين في قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله
والراسخون في العلم) يتضح أن المتشابه ثلاثة أنواع ، وهي (١) :

١ - المتشابه الحقيقي

وهو ما لا يعلمه أحد من البشر كالعلم بحقيقة ذات الله تعالى ،
وحقائق صفاته تعالى ، وصفات الجنة والنار والملائكة وغير ذلك مما استأثر
الله بعلمه من الحقائق الغائبة عن حواس الإنسان .

(١) سورة الشورى ١١ .

(٢) سورة البقرة ٣ .

أما بالنسبة لمعاني ودلالات تلك الصفات فإنه يعلم بشئ ما منها يحتاج إليه ، ويتفق مع مؤهلات الإنسان في هذه الحياة الدنيوية ، فالله تعالى موصوف بأنه « السميع » و « البصير » ولهما معان ودلالات يعلم الإنسان بشئ ما منها ولكن من طبيعة الإنسان أن لا يتخيل بعيداً عن المحسوسات لديه ولذا قال تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

٢ - المتشابه الإضافي

وهو يتناول الآيات التي تحتاج في إيضاها وبيانها إلى دليل آخر من الكتاب أو السنة أو اللغة أو معارف الإنسان البشرية وغير ذلك كالعام والخاص والناسخ والمنسوخ ، وكالألفاظ الغريبة أو المشتركة ، وكذا الإعجاز العلمي في القرآن .

وهذا النوع متشابه من جهة ، ومحكم من جهة أخرى على القراءتين ، فهو محكم على قراءة الوقف ، متشابه على قراءة الوصل ، فالآيات القرآنية التي تحتاج إلى دليل آخر في إيضاها وبيان مغانيتها ، وتحديد المعنى المراد ، في البداية ستكون مصدراً للاشتباه والالتباس والخطأ فتحتاج إلى العالم بذلك ليزيل الاشتباه وتحديد المعنى المراد ، ولذلك فإن هذه الآيات من هذا الوجه تعتبر من المتشابه .

ولكن بعد زوال الاشتباه عن طريق العلماء وتحديد المعنى المراد تكون من الآيات الواضحات البيّنات ، ولذلك تعتبر من هذا الوجه من المحكم .

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور . ج ٣ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

٣ - المتشابه الخفى

وهو يتناول المعانى العالية الدقيقة الخفية مما تفيض به القلوب ، التى يدركها العلماء الراسخون فى العلم من سياق الآيات القرآنية عند تلاوتها وتدبرها دون أن تساق لتلك المعانى .

المبحث الثامن

إمكانية معرفة المتشابه :

مما سبق فى مبحث « أنواع المتشابه » وكذلك مبحث « منشأ المتشابه » يتضح أن معرفة المتشابه على قسمين ، وهما :

١ - ما يمكن معرفته

وهو المتشابه الخفى ، والمتشابه الإضافى وهما يشتملان على التفسير والبيان للمتشابه من جهة اللفظ كالألفاظ الغريبة أو المشتركة . والمتشابه من جهة اللفظ والمعنى معاً كالعام والخاص والناسخ والمنسوخ .

وكذلك ما يجده العلماء الراسخون فى العلم فى قلوبهم من المعانى العالية الخفية الزائدة على ظاهر الآيات القرآنية المستنبطة من سياق الآيات عند تلاوتها وتدبرها ، والتأمل فى المعانى ودلالاتها مما لا يدركه كل قارئ للقرآن .

وذلك مما تدل عليه القراءتان فى آية سورة آل عمران ، كما سبق .

٢ - ما لا يمكن معرفته

وهو المتشابه الحقيقي ، ويتناول إدراك الحقائق الغائبة عن حواس الإنسان ، مما يتعلق بالغيبيات كإدراك حقيقة الذات الإلهية ، وحقائق صفاته تعالى ، وصفات الجنة والنار (١) .

وهذا مما تشير إليه قراءة الوقف في آية سورة آل عمران ، أما معرفة العلماء لشيء ما من معانى ودلالات تلك الصفات للحقائق الغائبة ، كصفات الله تعالى ، وصفات الجنة والنار ، فبما يتفق مع قدراتهم وإمكانياتهم البشرية المحدودة بحدود المحسوسات فى دنياهم .

قال تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

وقال تعالى (فى جنة عالية لا تسمع فيها لاغية فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة وغمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة) (٣) .

بل إن فى الحياة الدنيا فى عصر دون عصر من الصناعات والإمكانات ما لا يمكن إدراك حقائق صفاتها فى عصر آخر ، وإن أدرك بعضاً من معانيها ودلالاتها ، كالكهرباء والاتصالات والكمبيوتر فى عصرنا بالنسبة للعصور السابقة ، وإذا كان هذا إدراك الإنسان فى دنياه أو عالمه ، فما حاله إذا تجاوز ذلك ؟ والله الهادى إلى سواء السبيل .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

تفسير الطبرى ، ج ٦ ، ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

تفسير القرطبي ، ج ٢ ، ص ١٢٥٨ - ١٢٦١ .

تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٧ .

(١) سورة الشورى ١١ .

(٢) سورة الفاشية ١٠ - ١٦ .

المبحث التاسع

تأويل المتشابه من آيات الصفات ومناهجه :

لقد سبق بيان أن إدراك الحقائق الغائبة عن حواس الإنسان لا يمكن إدراكها عن طريق الصفات لها ، فكيف يكون الأمر إذا تعلق بذات الله تعالى أو بصفاته أو بعالم آخر غير عالمه المشاهد كالجنة والنار والملائكة ؟ . وإن كثيراً من العلماء قد حصر بحثه في المتشابه بآيات الصفات دون غيرها ، وقد اتفقوا على النقاط التالية :

١ - أن الأصل في تأويل الآيات المتشابهات هو إرجاعها إلى الآيات المحكمات .

قال تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) (١) .

٢ - تنزيه الخالق سبحانه وتعالى عن المماثلة أو المشابهة لمخلوقاته .

قال تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

٣ - أن الأصل في إثبات الأسماء والصفات لله تعالى هو الكتاب والسنة .

٤ - أن المتشابهات من آيات الصفات قد لا تحتل إلا وجهاً واحداً لدلالة الآيات المحكمات على ذلك (٣) .

كقوله تعالى (يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله) (٤) .

(١) سورة آل عمران ٧ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

(٣) مناهل العرفان للزرقانى ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

دراسات فى علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل ، ص ٢٢١ .

(٤) سورة الزمر ٥٦ .

فالمراد بـ « جنب الله » أى حق الله وما يجب له .

وقوله تعالى (وهو معكم أين ما كنتم) (١) .

فالمراد بـ « وهو معكم » الإحاطة بالعلم والقدرة والإرادة .

وأما ما تعددت فيه أوجه الاحتمال فقد اختلف العلماء فيه على ثلاثة

اتجاهات ، وهى :

الاول : مذهب السلف

فالسلف رضى الله عنهم يرون أن صفات الله تعالى مفهومة المعنى والدلالة بما يتفق مع لسان العرب ، والتوقف فيما يتعلق بالكيفية والكنه ، لأن ذلك مما يحتاج إلى دليل ، ولا دليل عليه من نص شرعى أو مشاهدة له أو لمثله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إن النصوص الشرعية توجب التوقف عن ذلك .

كقوله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) (٢) .

فالله تعالى يتصف بأنه « السميع » و « البصير » وهما مفهومان فى المعنى بما تقتضيه اللغة ، ولكن هذا الإثبات يجب أن يصاحبه تنزيه لله تعالى عن المشابهة أو المماثلة لخلقه تعالى ، فقال تعالى قبلهما (ليس كمثله شئ) .

ولذلك فإن إدراك الحقيقة أو الكيفية أو الكنه أمر ليس للإنسان قدرة أو طاقة عليه .

قال تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) (٣) .

(١) سورة الحديد ٤ .

(٢) سورة الشورى ١١ .

(٣) سورة طه ١١٠ .

وروى عن أم سلمة فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (١)
أنها قالت : « الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول ، والإقرار به من
الإيمان ، والجحود به كفر » (٢) .

كما روى عن الإمام مالك أنه سأل رجل عن الاستواء ، فقال : «
الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، وأظنك رجل
سوء ، أخرجوه عنى » (٣) .

وأن السلف الصالح كمالك والأوزاعى والليث بن سعيد والشافعى
وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من الأئمة يرون إمرار الآيات المتشابهات
من آيات الصفات من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل (٤) .

وقال الإمام ابن الصلاح : « على هذه الطريقة مضى صدر الأمة
وساداتها وإياها اختار أئمة الفقه وقاداتها ، وإليها دعا أئمة الحديث
وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها وبأبائها » (٥) .

كما استدلل الإمام الفخر الرازى على وجوب التوقف عن الخوض فى
تعيين التأويل بعد الاعتقاد بأن ظاهر اللفظ محال (٦) لقيام الأدلة العقلية

(١) سورة طه ٥ .

(٢) انظر الرسائل المنيرية - عقيدة السلف للصابونى ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٣) الإتيقان للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٨ .

البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٤) فضل علم السلف على الخلف للإمام ابن رجب الحنبلى ، ص ١٩ - ٢٠ .

تفسير ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

الأسماء والصفات للبيهقى ، ص ٤٠٧ .

(٥) الإتيقان للسيوطى ، ج ٣ ، ص ٥١ .

(٦) إن مذهب السلف أن ظاهر اللفظ بما يقتضيه حب اللغة مراد دون تكييف أو
تشبيه أو تعطيل .

على ذلك حيث يقول : « صرف اللفظ عن الراجع إلى المرجوح لا بد فيه من دليل منفصل ، وذلك الدليل المنفصل إما أن يكون لفظياً وإما أن يكون عقلياً .

أما القسم الأول فنقول : هذا إنما يتم إذا حصل بين ذينك الدليلين اللفظيين تعارض وإذا وقع التعارض بينهما فليس ترك ظاهر أحدهما رعاية لظاهر الآخر أولى من العكس ، اللهم إلا أن يقال : إن أحدهما قاطع فى دلالة والآخر غير قاطع فحينئذ يحصل الرجحان ، أو يقال : كل واحد منهما وإن كان راجحاً إلا أن أحدهما يكون أرجح وحينئذ يحصل الرجحان إلا أن نقول : أما الأول فباطل ، لأن الدلائل اللفظية لا تكون قاطعة البتة ، لأن كل دليل لفظى فإنه موقوف على نقل اللغات ، ونقل وجوه النحو والتصريف ، وموقوف على عدم الاشتراك وعدم المجاز ، وعدم التخصيص ، وعدم الإضمار ، وعدم المعارض النقلى ، وكان ذلك مظنون ، والوقوف على المظنون أولى أن يكون مظنوناً ، فثبت أن شيئاً من الدلائل اللفظية لا يكون قاطعاً .

وأما الثانى وهو أن يقال : أحد الدليلين أقوى من الدليل الثانى وإن كان أصل الاحتمال قائماً فيهما معاً ، فهذا صحيح ، ولكن على هذا التقدير يصير صرف الدليل اللفظى عن ظاهره إلى المعنى المرجوح ظنياً ، ومثل هذا لا يجوز التعويل عليه فى المسائل الأصولية ، بل يجوز التعويل عليه فى المسائل الفقهية ، فثبت بما ذكرناه أن صرف اللفظ عن معناه الراجع إلى معناه المرجوح فى المسائل القطعية لا يجوز إلا عند قيام الدليل القطعى العقلى على أن ما أشعر به ظاهر اللفظ محال ، وقد علمنا فى الجملة أن استعمال اللفظ فى معناه المرجوح جائز عند تعذر حمله على ظاهره ، فعند هذا يتعين التأويل فظهر أنه لا سبيل إلى صرف اللفظ عن معناه الراجع إلى معناه المرجوح إلا بواسطة إقامة الدلالة العقلية على أن

معناه الراجح محال عقلا ، ثم إذا أقامت هذه الدلالة وعرف الكلف أنه ليس مراد الله تعالى من هذا اللفظ ما أشعر به ظاهره ، فعند هذا لا يحتاج إلى أن يعرف أن ذلك المرجوح الذى هو المراد ماذا ؟ لأن السبيل إلى ذلك إنما يكون بترجيح مجاز على مجاز وترجيح تأويل على تأويل ، وذلك الترجيح لا يمكن إلا بالدلائل اللفظية والدلائل اللفظية على ما بينا ظنية لا سيما الدلائل المستعملة فى ترجيح مرجوح على مرجوح آخر يكون فى غاية الضعف ، وكل هذا لا يفيد إلا الظن الضعيف ، والتعويل على مثل هذه الدلائل فى المسائل القطعية محال » (١) .

ويقول أيضاً : « أن اللفظ إذا كان له معنى راجح ، ثم دل دليل أقوى منه على أن ذلك الظاهر غير مراد ، علمنا أن مراد الله تعالى بعض مجازات تلك الحقيقة ، وفى المجازات كثرة ، وترجيح البعض على البعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية ، والترجيحات اللغوية لا تفيد إلا الظن الضعيف ، فإذا كانت المسألة قطعية يقينية ، كان القول فيها بالدلائل الظنية الضعيفة غير جائز ، ومثاله قال الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (٢) دل الدليل أنه يمتنع أن يكون الإله فى المكان ، فعرفنا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية ما أشعر به ظاهرها ، إلا أن فى مجازات هذه اللفظة كثرة ، فصرف اللفظ إلى البعض دون البعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية الظنية ، والقول بالظن فى ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بإجماع المسلمين ، وهذه حجة قاطعة فى المسألة والقلب الخالى عن التعصب يميل إليه ، والفطرة الأصلية تشهد بصحته ، وبالله التوفيق » (٣) .

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ، - ٧ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) سورة طه ٥ .

(٣) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

وكذلك صفات الجنة والنار والملائكة ، نفهم معانيها حسب ما تقضيه اللغة على لسان العرب فنعلم ونؤمن بها دون قياس للغائب على الشاهد أو الحقائق الغائبة على الحقائق المشاهدة ، لأن إدراك نفس تلك الحقائق الغائبة لا يعلمها إلا الله .

كقوله تعالى (أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) (١) .

وقوله تعالى (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) (٢) .

الثانى : مذهب الخلف

ويسمى مذهب المؤولة ، وهم فريقان :

(١) **الفريق الأول** : وهو يرى حمل اللفظ « الصفات » الذى استحال حمله على ظاهره - على حقيقته اللغوية - على أقرب مجاز لغوى له ، مما يسوغ لغة ، ويليق بالله تعالى عقلا وشرعاً ، ليوصف الله تعالى بصفات معلومة على التعيين .

وذلك بحجة دفع الإهمال لتلك الصفات ، بسبب التفويض والتوقف فى تحديد مفهوم لها ، أو حمل الصفات على ظاهرها الذى يقتضى - عندهم - التشبيه والتجسيم لله تعالى ، وهو محال ، وهذا كله يدعو إلى الحيرة بين المسلمين .

ولذلك فإن التأويل فيه صرف للفظ من مقام الإهمال الموجب للحيرة إلى مقام اللفظ المفهوم المعلوم ، وهو حمل لكلام الله تعالى على معنى صحيح لغة وعقلا وشرعاً .

(١) سورة محمد ١٥ .

(٢) سورة فاطر ١ .

وقد ظهر هذا المنهج فى التأويل بعد أن كثر الجهل بأصول الدين ،
والخوض فى آيات الصفات ، وتصدى علماء السلف لذلك بالبيان للمعنى
المراد على ما يقتضيه لسان العرب ، ثم تبعهم بعض علماء الخلف بالبيان
للآيات المتشابهات من آيات الصفات ثم كثر الخوض والجدال فى الشبهات
التي اعترضت لهم فى هذا المقام إلى أن وصلوا إلى القول بالتأويل على هذا
المذهب وغيره (١) .

وقد أخذ بهذا المذهب ابن برهان ، وإمام الحرمين إلا أنه رجع عنه ،
وجماعة من المتأخرين .
ومن أمثلة ذلك :

قال تعالى (الرحمن على العرش استوى) (٢) فالمعنى عندهم يحمل
على أقرب المجازات اللغوية ، وهو أن « استوى » بمعنى علا وارتفع دون
تمثيل أو تكييف أى علا إمره وقدرته ، أو أن « استوى » بمعنى القهر
والغلبة أى غلب على العرش وقهره (٣) .

وقال تعالى (يد الله فوق أيديهم) (٤) أى قدرة الله تعالى فوق
قدرتهم .

وقال تعالى (والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما
يشركون) (٥) أى « بيمينه » أى قدرته .

وقال تعالى (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) (٦) أى وجاء أمر ربك .

(١) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان لسلامة القضاء ، ص ٩٥ - ٩٦ .

انظر : المحكم والمتشابه للدكتور محمد التومى ، ص ٤٥ .

مناهل العرفان للزرقانى . ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) سورة طه ٥ .

(٣) مناهل العرفان للزرقانى . ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٤) سورة الفتح ١٠ .

(٥) سورة الزمر ٦٧ .

(٦) سورة الفجر ٢٢ .

(ب) الفريق الثانى :

وهم الأشاعرة ، وهم يرون حمل التشابهات من الصفات على صفات أو معان تليق بالله تعالى ، وذلك عن طريق صرفها عن ظاهرها المستحيل على الله تعالى عقلا وشرعاً ، دون تعيين أو تفصيل ، وتسمى صفات سمعية لدلالة النقل - السمع - عليها لا العقل .

ولذلك فإن لله تعالى صفات معلومة بالتعيين لدلالة الشرع والعقل عليها كالحياة والعلم والسمع والبصر .

كما أن لله تعالى صفات أخرى سمعية غير معلومة بالتعيين ، فتكون معلومة من جهة ، وغير معلومة من جهة الحقيقة والكنه والكيف الذى يوجب التفويض والتوقف من جهة أخرى (١) .

ومن أمثلة ذلك ما قاله الإمام أبو الحسن الأشعري فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) (٢) : « إن الله فعل فى العرش فعلا سماه استواء ، كما فعل فى غيره فعلا سماه رزقاً ، ونعمة أو غيرهما من أفعاله » (٣) .

وقال تعالى (يد الله فوق أيديهم) (٤) .

قالوا إن « اليد » صفة جاءت عن طريق النقل يظهر منها معنى « القدرة » إلا أن القدرة أعم و « اليد » أخص ، فيثبتون لله تعالى « اليد » كصفة سمعية دون إدراك حقيقتها وكنهها .

والمعتزلة يرون صرف اللفظ الذى استحال ظاهره على أصل من أصولهم الخمسة - وهو التوحيد - إلى معان تليق بالله تعالى ،

(١) مناهل العرفان للزرقانى ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

الحكم والمتشابه للدكتور محمد التومى ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) سورة طه ٥ .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقى ، ص ٤٢٠ .

(٤) سورة الفتح ١٠ .

مع نفيهم الصفات لله تعالى ، حيث يرون أنها أسماء ذات لله تعالى فينفون عن الله تعالى صفات العلم والقدرة والإرادة والحياة ، حذراً من تعدد القديم ، كما ينفون السمع والبصر والكلام لله تعالى لأنها من عوارض الأجسام (١) .

الثالث : مذهب المتوسطين بين السلف والخلف

وهو ينسب إلى الإمام ابن دقيق العيد حيث يرى أن التأويل إما أن يكون قريباً في لسان العرب ، واستعمالاته ، أو يكون بعيداً ، فإن كان قريباً أخذ به وإلا فالتوقف عنه والإيمان به على المعنى الذى أريد به ، مع تنزيه الخالق سبحانه وتعالى (٢) .

واختلف العلماء في التأويلين إذا كانا متساويين في القرب والبعد (٣) .

ومن أمثلة ذلك : قال تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) (٤) .

وقال تعالى (وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني) (٥) .
فقوله تعالى « بأعيننا » و « على عيني » بمعنى الإحاطة بالعلم والحراسة والحفظ (٦) .

وقال تعالى (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) (٧) .
أى ما فرطت في حق الله وما يجب له (٨) .

(١) المقاصد للتفتازانى ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٢) الإتيقان للسيوطى ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٣) الفرقان بين صفات الخالق وصفات الأكوان لسلامة القضاء ، ص ٩٦ .

فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي ، ص ١٢ .

المحكم والمتشابه للدكتور محمد التومى ، ٤٦ .

(٤) سورة هود ٣٧ .

(٥) سورة طه ٣٩ .

(٦) تفسير القاسمى ، ج ٩ ، ص ٣٤٣٤ - ٣٤٣٥ ، ج ١١ ، ص ٤١٧٨ .

(٧) سورة الزمر ٥٦ .

(٨) الإتيقان للسيوطى ، ج ٣ ، ص ١٦ .

المبحث العاشر

التأويل للحروف المقطعة فى أوائل السور :

لقد جاءت الحروف المقطعة فى أوائل تسع وعشرون سورة من سور القرآن ، واختلف العلماء فى تأويلها على منهجين ، وهما (١) :

١ - مذهب التفويض والتوقف

وهو يرى أن هذه الحروف سر من أسرار الله تعالى فى كتابه ، أى مما استأثر الله تعالى بعلمه ، حيث لم يصح دليل على تفسيرها ، ولا قول على الله تعالى بغير علم .

٢ - مذهب التأويل

وقد تعددت الآراء فى ذلك ، وهى بإيجاز :

(أ) قيل : إنها من أسماء سور القرآن وهو قول ساقط للتشابه والتماثل بين بعض سور القرآن فى الحروف التى افتتحت بها كسور البقرة وآل عمران .

قال تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) (٢) .

وقال تعالى (ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) (٣) .

(ب) وقيل : إنها من أسماء الله تعالى ، بل وقال آخرون : إن كل حرف منها يعبر عن اسم أو صفة لله تعالى ، وهما قولان باطلان ، لا دليل صحيح عليهما .

(ج) وقيل : إن ذلك مما أقسم الله تعالى به ، وهو قول ساقط لا يتفق مع المعهود عن العرب فى صيغ القسم .

(١) تفسير الإمام الطبرى ، ج ١ ، ص ٥٧ .

تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٩ - ٦٠ .

لباب التأويل فى معانى القرآن للهازم ، ج ١ ، ص ٢٦ .

الإتقان للسيوطى ، ج ٣ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) سورة البقرة ١ - ٢ .

(٣) سورة آل عمران ١ - ٢ .

(د) وقيل : إنها للتحدى وبيان إعجاز القرآن ، وأنه كتاب منزل من عند الله تعالى ، لا من صنع البشر ، حيث إنه مؤلف من أجناس هذه الحروف - على لغة العرب - وهم أفصح العرب مع عجزهم عن الإتيان بمثله ، لإثبات صحة دعواهم فى الإنكار للقرآن ، وتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك جاء بعد هذه الحروف المقطعة الانتصار للقرآن .

كقوله تعالى (ألمص كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) (١) .

وقول تعالى (أأمر تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) .

ولكن ذلك ليس مطرداً فى جميع السور القرآنية التى افتتحت بالحروف المقطعة ، حيث إن سورة العنكبوت لم يلها الانتصار للقرآن .

قال تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) (٣) .

(هـ) وقيل : إنها للتنبيه ، أى لتنبيه السامع لسماع القرآن عند سماعه ، وقد جاءت على غير معهود العرب مبالغة فى جلب الانتباه إلى الدعوى إلى الإيمان بالله ورسوله وكتابه (٤) ، والله أعلم .

(١) سورة الأعراف ١ - ٢ .

(٢) سورة يونس ١ .

(٣) سورة العنكبوت ١ - ٢ .

(٤) دراسات فى علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل ، ص ٣٣٥ - ٣٤٤ .

منهل العرفان للزرقانى ، ج ٢ ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ، ج ٢ ، ص ٦ .

المبحث الحادى عشر

تأويل المتشابه بين الأمر والنهى :

إن المتشابه على دلالة القراءتين - كما سبق - أنواع ، فهناك المتشابه الحقيقى ، وهنالك المتشابه الإضافى والخفى .

كما أن منشأ المتشابه على دلالة القراءتين ثلاثة أقسام ، وهى :
المتشابه من جهة اللفظ ، والمتشابه من جهة اللفظ والمعنى ، والمتشابه من جهة إدراك حقائق الأشياء الغائبة ، كما سبق تفصيله .

وإن العلماء الراسخين فى العلم هم الذين يدركون ذلك ، فالعلم والجهل أمران مختلفان اختلاف تضاد ، وكذا الجد والاجتهاد والعمل يقابله التقاعس والكسل والتقليد الأعمى والاستهتار والاستهزاء ، سواء كان الأمر يتعلق بالقدرات العقلية أو النفسية أو العمليات السلوكية الخارجية .

ولذلك كان تفسير القرآن وبيان معانيه ودلالاته بالنسبة للعلماء فرض كفاية ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فالعلماء الراسخون فى العلم هم الذين يعرفون أنواع المتشابه ، ومنشأ التشابه فى القرآن والسنة النبوية ، وإن اختلفوا فى تحديد مواطنه ومواضعه ، وخاصة فى المتشابه الحقيقى الذى يتعلق بإدراك أو التعبير عن حقائق الأشياء الغائبة عن حواس الإنسان .

ولا شك أن العلم بالمتشابه من القضايا المبنية على النظر والاجتهاد ، والتأمل والتفكير فى النصوص القرآنية ، وأوجه الاصطلاح فى اللغة العربية ، والمعارف والمعلومات المتنوعة التى تحيط بالإنسان ، وغير ذلك .

ولذلك فالعلم بالمتشابه من القضايا النسبية ، فالعلماء فى درجات مختلفة على المستوى الرأسى والأفقى . فما يدركه عالم قد لا يدركه عالم آخر ، ولكنه إذا جهل به آمن به ، وبما يتفق مع الآيات المحكمة ، وفوض علم

المتشابه إلى الله تعالى مع الجد والعمل للعلم به بالنظر والتأمل والتفكير بنفسه ، أو عن طريق عالم آخر .

ولذا نجد أن بعض الصحابة والتابعين رضى الله عنهم قد توقفوا على تفسير آية أو لفظ من القرآن دون علم .

عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال عندما سئل عن معنى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) (١) : « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله تعالى ما لا أعلم » (٢) .

فالتعرض للمتشابه يمكن أن يكون من أحد فريقين ، وهما :

الفريق الأول : العلماء الراسخون فى العلم ، وهم الذين يملكون العلم بالقرآن بمقوماته وأدواته ، والعمل به ، فهم المهتدون والمتبعون فى بيان معانى القرآن ودلالاته .

ولذا نجد كثيرا من النصوص الشرعية التى تدل على الحث على طلب العلم ، والعمل به .

قال تعالى (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل ربه زدنى علما) (٣) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) (٤) .

وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) (٥) .

(١) سورة عبس ٣١ .

(٢) الإتيان للسيوطى ج ١ ، ص ١١٥ .

(٣) سورة طه ١١٤ .

(٤) سورة المجادلة ١١ .

(٥) سورة الزمر ٩ .

كما جاءت النصوص أيضاً تدل على الحث على اتباع العلماء .

قال تعالى (فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (١) .

وقال تعالى (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلاً) (٢) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) (٣) .

الفريق الثانى : وهم الجهال والضالون ، والمضلون ، الذين يتطرقون أو يقومون بالتفسير للقرآن عن غير علم ، جراءة على الله تعالى وعلى كتابه العزيز بما يتفق مع أهوائهم ، وشهواتهم المريضة ، أو لإثارة الفتنة بين العامة من المسلمين بالتشكيك والتلبيس فيما غمض عليهم من معانيه ودلالاته ، أو للصد عن سبيل الله تعالى بالاستهزاء والسخرية والكفر فى آياته سبحانه وتعالى .

وقد جاءت كثير من النصوص الشرعية التى تحذر من الخوض فى كتاب الله تعالى من غير علم ، ومن العلم بالقرآن تفسير القرآن بالقرآن ، أى إرجاع المتشابه منه إلى الآيات المحكمات .

ولذلك فإن الخوض فى المتشابه من القرآن دون علم به من صفات المنافقين والكفار - اليهود والنصارى - والمشركين .

قال تعالى (هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (٤) .

(١) سورة النحل ٤٣ ، والأنبياء ٧ .

(٢) سورة النساء ٨٣ .

(٣) سورة النساء ٥٩ .

(٤) سورة آل عمران ٦٦ .

وقال تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (١) .

وقال تعالى (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) (٢) .

وقال تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) (٣) .

وقال تعالى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) (٤) .

كما جاءت النصوص الشرعية - أيضاً - التى تدل على حث المسلمين على اجتنابهم والبعد عنهم .

قال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) (٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (٦) قالت : قال رسول

(١) سورة الإسراء ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران ٧١ .

(٣) سورة آل عمران ٧ .

(٤) سورة الأنعام ١٤٤ .

(٥) سورة الأنعام ١١٦ ، ١١٧ .

(٦) سورة آل عمران ٧ .

الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم » (١) .

وقد تعرض العلماء والدارسون للمتشابه - وخاصة في متشابه الصفات - وأخذ التأويل له منحنيات أو مناهج مختلفة ، بعد أن دخلت كثير من الأمم ذات الثقافات المختلفة في الإسلام ، وكثير من الفلسفات الأخرى بين العلماء المسلمين ، وكثر الإلحاد ، وتفرقت الأمة إلى فرق متعددة .

ولا شك أن ذلك أثرى الفكر الإسلامى بكثير من الإيجابيات وكثير من السلبيات ، تحتاج إلى الدراسة في العصر الحاضر بروح معاصرة ، حيث إن العصر الحاضر قد فتح لنا كثيراً من الأبواب التي تتعارض مع بعض الأصول في الفكر الإسلامى في تأويل بعض الصفات للحقائق الغائبة عن حواس الإنسان ، حيث إنها تتعارض مع بعض الصفات لأعمال الإنسان في العصر الحاضر ، مما اكتشفه من أسرار الطبيعة ، وما استثمره منها كصفات الكمبيوتر ، وصفات النقل الجوى ، والاتصالات ، وخارج الغلاف الجوى ، وغير ذلك كثير .

ولذلك إذا رجعنا بخیالنا إلى أهل تلك العصور السابقة ، وعرضنا بعض الصفات للمكتشفات والاختراعات في العصر الحاضر على بعض تلك الأصول العقلية لإدراك حقائقها لن يكون لنا ولهم إلا التأويل الخاطئ ، بل وربما المضحك لتلاميذ العصر الحاضر .

ولك أن تتصور التأويلات في القرن الثالث أو الرابع الهجرى للعبارات التالية :

(١) رواه مسلم في كتاب العلم ، باب النهى عن متشابه القرآن ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

- الطائرة تسير بين مكة وبيت المقدس بوقت يعادل ما بين وقت صلاة المغرب وأول وقت صلاة العشاء ، حاملة خمسمائة راكباً من الناس .

- استلمت رسالة من أخى فى المغرب الأقصى فى خلال برهة من الزمن تعادل قراءة البسملة .

- شاهدت أخى قبل قليل فى بيت المقدس بصحة جيدة .

- دونت ما يساوى ١,٠٠٠,٠٠٠ مصحفاً فى قطعة من الحديد بحجم الإبهام .

وهنا تدرك بجلاء أن إدراك أو التعبير عن حقائق الأشياء الغائبة يجب أن يقف على معانى ودلالات تلك الألفاظ ، وإن إنسان اليوم هو إنسان الأمس فيما تحدث عنه القرآن من الحقائق الغائبة عن حواسه .

وهذا ليس إنكاراً للعقل الإنسانى وأهميته ودوره ، أو تحديد لقدراته ، ولكن ذلك ما يتفق مع طبيعة العقل فيما لم تقع عليه الحواس .

كما أن ذلك ليس فيه تحديد للعقل فى فرض الفرضيات النظرية ، التى تتعلق ببعض الحقائق الغائبة ، مما يمكن أن يخضع اليوم أو غداً للتجربة أو للحواس ، والتى تشكل مطلباً علمياً للإنسان فى الحياة الدنيا ، والله أعلم .

المبحث الثانى عشر

الحكمة من وجود المتشابه :

إن لوجود المتشابه فى القرآن على دلالة القراءتين حكم كثيرة ، فجمل بعضاً منها فى النقاط الآتية :

١- الحث على النظر والتأمل والتفكير الموجب للمعرفة والعلم باستثمار ما فطر الله تعالى عليه الإنسان من حب للاستطلاع ، والحاجة تقدر الفكرة .

وإذا كان القرآن دستور الشريعة الإسلامية ، وهو دستور الأمة في كل عصر ، والاجتهاد مطلباً يتفق مع خصائص الإنسان ومعارفه في كل عصر ، فإن هنالك كثيراً من العلوم التي اشتمل عليها القرآن في أصولها وقواعدها أو مسائلها الكلية أو الجزئية ، في البنية العقدية أو البنية العقلية والنفسية أو في البنية الاجتماعية ، فكانت نوراً يهتدى بها علماء الإسلام في كل زمان ومكان .

٢ - البناء العقلي والعاطفي للمجتمع الإسلامي ، وخاصة العلماء ، حيث إن الله تعالى قد دعا الإنسان في كتابه العزيز إلى أن يقتحم عالمه الفسيح الذي استخلفه فيه ، كما أن الله تعالى قد جعل بعض النصوص القرآنية ظنية الدلالة للنظر والاجتهاد ، والذي يشرى المجتمع والعلماء بكثير من الاحتمالات في دلالة النصوص ، وكذا تعدد الآراء والترجيحات المختلفة ، مع كل احترام وإجلال لكل تلك الاحتمالات والآراء ، وهذا فيه رياضة للبنية العقلية في المجتمع الإسلامي ، لتحريك العقول إلى مزيد من الجد والاجتهاد للتفكير والنظر لتحصيل العلوم ، واستثمار الطاقات ، والبعد عن الجهل والتقليد .

قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (٢) .

٣ - إن في وجود التشابه في القرآن الذي لا يدركه إلا العلماء ، ما يدعو الأمة إلى امتثال أقوال العلماء ، فهم ورثة الأنبياء ، واحترامهم وإجلالهم ، ووضعهم في مكانتهم الاجتماعية العالية في قيادة الأمة ، حتى تتجنب الزلل والتخبط في فعاليتها العقدية والاجتماعية والاقتصادية .

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ، ج ٧ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

مشكل القرآن لابن قتيبة ، ص ٦٢ .

مناهل العرفان للزرقاني ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٥ .

(١) سورة الزمر ٩ - ١٠ .

ولذلك تتعدد وتحذر أقوال أهل الجهل والضلال والزيف ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن دون محكمه للتشكيك والتلبيس والشبهة وإثارة الفتنة بين المسلمين .

٤ - ابتلاء العباد وامتحانهم فى الوقف على ما استأثر الله تعالى بعلمه ، كحقائق الأشياء الغائبة - المغيبات - مما لا يمكن إدراكه أو التعبير عنه ، أو رحمة من الله تعالى بعباده كوقت قيام الساعة وأجل الإنسان ، وهذا مما يعرفه العلماء الراسخون فى العلم .

ولذلك كان منهم التفويض فى أمر علم ما استأثر الله تعالى بعلمه ، والإيمان بالغيب هو حجر الأساس للإيمان بأركان الإيمان .

قال تعالى (ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) (١) .

٥ - إن القرآن جاء بما يتفق مع قدرات الإنسان وإمكانياته فى القدرات العقلية والنفسية ، حيث إن التصور والتخيل عنده يرتبط بعالمه المحسوس ، والقرآن قد اشتمل على كثير من القضايا المهمة بالنسبة له مما لا يمكن أن يحيط به ، ولا غنى له عنه ، كالمعرفة بوجوده وبخالقه ، أو علاقته بخالقه ، وكذا معرفته بالوجود أو علاقته بالوجود كله ، ومصيره .

وهى موضوعات مهمة فى العقيدة تعمل على تزكية النفوس والسمو بها ، للالتزام بالتكليف وعمارة الأرض .

قال تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) (٢) .

(١) سورة البقرة ١ - ٣ .

(٢) سورة المجادلة ٧ .

٦ - إذا كان الله تعالى قد دعا إلى العلم والعمل فهما من أعلى أبواب العبادة له سبحانه وتعالى ، والمتشابه باب من أبواب البحث عن دقائق القرآن ، والذي يصاحبه كثير من المشقة ، التي تعنى مزيداً من الأجر والمشوة .

عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » (١) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٢) .

٧ - إن الإيجاز والخفاء في القرآن ، الذي يدركه العلماء الراسخون في العلم قد يسر حفظه والمحافظة عليه ، وتناوله ، مع اشتماله على كثير من المعاني ، مما يستفاد من أصل كلام الله تعالى ، أما لو كان القرآن كله محكماً لا حتاج إلى كثير من المجلدات يتعذر معها حفظه ، وكذا سد باب الاجتهاد للعلماء والأمة ، وهو مطلب يتفق مع طبيعة الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالعقل .

قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) (٣) .
وقال تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) (٤) .

(١) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد ، ج ٨ ،

ص ١٥٧ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الوصية ، حديث ١٤ ، ج ٣ ، ص ١٣٥٥ .

(٣) سورة الإسراء ٧٠ .

(٤) سورة الكهف ١٠٩ .

٨ - إن القرآن معجزة لكل زمان ومكان ، والإنسان مخاطب به بلسان عربى مبين ، بما يتفق مع إدراكاته البشرية ، دون أن يثير مشكلة أو معضلة عقلية فى كل عصر ، بل كتاب هداية لكل عصر ، وأدهش عقول أهل كل عصر بما اشتمل عليه من معجزات ، كالإعجاز العلمى فى كثير من التخصصات كالطب والفلك وعلوم البحار .

قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (١) .

وقال تعالى (هو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) (٢) .

وقال تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) (٣) .
وقال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) (٤) .

وإن من أبواب الإعجاز فى القرآن الخفاء فى المعانى بما اشتمل عليه من إسرار بديدة ومعان تدرك بعد عناء وتأمل وتفكير العلماء .
قال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (٥) .

٩ - إن وجود المتشابه فى القرآن يعد باباً من ابواب الدعوى إليه ، لأن أهل كل دين أو ملة سيجدون فى ما يدعو إلى النظر فيه بمحاولة التصدى له ، دفاعاً عن دينهم وملتهم .

(١) سورة المؤمنون ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة الأنبياء ٣٣ .

(٣) سورة الرحمن ١٩ ، ٢٠ .

(٤) سورة فصلت ٥٣ .

(٥) سورة النساء ٨٢ .

ولكنهم بعد النظر والتأمل والتفكير سيرون كتاباً منزلاً من عند حكيم خبير ، فيكون له شاهد من أهل كل دين وملة ، كما يكون شاهداً على ملته ودينه .

قال تعالى (أَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (١) .

١٠ - إن وجود التشابه في القرآن يكشف من في قلبه زيغ ، لأنه قد يرى في وجوده رغبة أو شهوة لديه بما يتفق مع مذهبه ، أو ما يشبع أهواءه وشهواته ، أو ما يبرر به ما هو عليه من ضلال .

بل قد يكون دليلاً وعلامة على الكفر والنفاق لمحاولته التشكيك والتلبيس ، والصد عن سبيل الله ، وإثارة الفتنة بين المسلمين .

قال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (٢) .

(١) سورة يوسف ١ - ٢ .

(٢) سورة آل عمران ٧ .

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، دار الفكر ببيروت .
- أساس البلاغة للإمام ابن عمر الزمخشري ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ .
- الأسماء والصفات للإمام أبى بكر البيهقى ، دار إحياء التراث العربى ببيروت .
- الإنسان وجوده وخلافته فى الأرض للمؤلف الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة .
- البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، ط ٣ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- تفسير الإمام الطبرى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ .
- تفسير الإمام القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب بمصر .
- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى ، مفاتيح الغيب ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- تفسير الإمام ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- دراسات فى علوم القرآن ، د. أحمد بكر إسماعيل ، دار المنار ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- صحيح البخارى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة الإسلامية بتركيا .
- صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربى ببيروت .

- فتح القدير للإمام الشوكاني ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ط ٢ ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
- فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان للشيخ سلامة القضاى ، دار إحياء التراث العربى ببيروت .
- فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلى ، مكتبة الكليات الأزهرية .
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للشيخ محمد الغزالى ، ط ١ ، ١٣٢٥ هـ ، القاهرة .
- القراءات القرآنية ، د . عبد الرحمن إبراهيم المطرودى ، الناشر جامعة الملك سعود ، كلية التربية ، مركز البحوث .
- القطع والاستئناف للإمام أبى جعفر النحاس ، تحقيق المؤلف ، الناشر دار عالم الكتب ١٤١٣ هـ .
- المحكم والمتشابه ، د. محمد التومى ، الشركة التونسية ، ١٩٨٠ م .
- المستصفى من علم الأصول لمحمد الغزالى ، ط ١ ، ١٣٢٤ هـ ، القاهرة .
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، تحقيق أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ببيروت .
- المفردات فى غريب القرآن للإمام الأصفهانى ، دار المعرفة ببيروت .
- مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد الزرقانى ، دون ذكر للناشر أو سنة النشر .
- الكشف للإمام الزمخشري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .
- اللآلئ الحسان فى علوم القرآن ، د. موسى شاهين ، مطبعة الفجر الجديد بمصر .